بين خيارات الشعوب وحسابات النخب ومتاهات التحول الديمقراطي»[٣]، وهو عبارة عن حوار مطول صدر سنة ٢٠١٦، مثلما أصدر عالم الاجتماع أحمد شراك مؤلفا سنة ٢٠١٧ تحت عنوان: «سوسيولوجيا الربيع العربي»[٤].

أولا: سياق التلقي وضغوطاته المعرفية

لم يكن من اليسير انفلات جميع الباحثين المغاربة الجادّين من ضغوطات السياق الذي أطر استقبالهم لحدث من حجم ما عاشته مجتمعات المغرب والمشرق العربيين، ضغوطات نعتبرها تفقد التفكير حريته، وتقيد تحرره من فرط ثقلها الضاغط، ومن ثم تضعه في منزلة بين منزلة رد الفعل العاطفي المتعاطف ومنزلة الحائر المحتمي بحذره المنهجي.

أولى هذه الضغوط تمثل في كون الحدث كان مفاجئا ومباغتا للجميع، والتفكير تحت ضغط المفاجأة، ليس شرطا علميا آمنا لإنتاج معرفة مطابقة، لأنه يهدد بقوة بانجرار العقل إلى قوته الانفعالية، والتي تضع الباحث في نفس شرط الفاعل، والذي هو شرط غليان اجتماعي جماعي. ضمن سياقات الغليان الاجتماعي ينحو التفكير نحو منطق الإيمان والاعتقاد، سواء بمضامينه الإنسانية أو الدينية أو اليسارية، في موضوعاته.

ثاني هذه الضغوط، يتمثل في كون العلوم الاجتماعية بالمغرب لم تراكم تجربة تذكر في تفكير حدث الثورة وأشكال الغليان الاجتماعي الجماعي. فمنذ ستينيات القرن الماضي وإلى حدود ٢٠١٠، ظلت العلوم الاجتماعية بكل مكوناتها تنقب وتبحث ضمن أطروحة كبرى هي أطروحة الاستمرارية، وقدرة المخزن المغربي وإمارة المؤمنين على إنتاج آلياتها السلطوية والتسلطية وإعادة إنتاجها على امتداد عقود وقرون إلى الدرجة التي أصبح معها تناول موضوعات إمكانيات إرساء الديمقراطية نظاماً سياسياً واجتماعياً ومعها حقوق الإنسان مطلباً رهينا ومرهوناً بضغوطات دول القوة الخارجية. في مثل هكذا وضع علمي ليس للباحث أية حماية علمية تأتيه من تخصصه: لا عدة منهجية، ولا مفاهيم ولا تجارب تحليلية أو نتائج يمكن فحصها والتحاور معها. التفكير تحت ضغط حالة اليتم المعرفي والعلمي هذه، لا يبقى أمام الباحث سوى منفذ المغامرة، بكل ما لها من جرأة تحسب لها، وضعف يعود عليها بإنتاج الأحكام ولوك الشعارات.

ثالث هذه الضغوط أقلّ موضوعية من سابقيْه، لذلك هو يورطنا نحن الباحثين أكثر مما ينتسب لشروط موضوعية تفوق الإرادة الفردية للباحث. يتمثل هذا الضغط في كون جميع الباحثين والخبراء بالمغرب، سيؤلفون إجماعهم، قبل الثورة التونسية بسنوات ليست بالكثيرة، حول تونس بوصفها أنموذجا تنمويا يمكن استنبات تجربته في مجال التعليم والصحة والاقتصاد وحرية المرأة ومحاربة الفقر والبطالة... في المجتمع المغربي. كيف يمكن لهذا الأنموذج التنموي الناجح أن يكون هو البلد

يفضل الباحث المغربي عبد الحيّ مودن، نعت ما عاشته المجتمعات العربية منذ ديسمبر (كانون الأول) ٢٠١٠ بالحالة الاستثنائية في التاريخ السياسي العربي، ويقترح توصيفه بـ «الرجة الثورية»

٣- مصطفى محسن، في البدء كان الانتفاض!: الحراك الثوري العربي بين خيارات الشعوب وحسابات النخب ومتاهات التحول الديمقراطي: حوار نقدي مفتوح، منشورات ضفاف، بيروت، ٢٠١٦، ٢١٤ ص.
٤- أحمد شراك، سوسيولوجيا الربيع العربي، مقاربات للنشر والتوزيع والصناعة الثقافية، فاس، ٢٠١٧، ٥٠٠ ص.